

المحاضرة الخامسة كارل ماركس والمحددات المادية للمعرفة

لا يمكن فهم تطور علم اجتماع المعرفة بدون الوقوف عند الإسهام الهائل (والإشكالي) لـ كارل ماركس (1818-1883م). لم يكتب ماركس كتابًا بعنوان "علم اجتماع المعرفة"، لكنه وضع النواة الصلبة التي انطلق منها هذا الحقل. "يتطلب الفهم الكافي للمسلمات الكامنة وراء منظور ماركس الاعتراف بخيبة أمله المبكرة تجاه كل من المثالية الهيغلية، والمادية الممثلة في فويرباخ والاقتصادييين السياسيين. كان ماركس يدرك جيدًا التوتر، والتباين الواضح، بين أنماط التفكير هذه: الأولى تختزل الواقع إلى التحقق التاريخي للروح؛ الثانية تختزل العقل أو الروح إلى مرتبة منتج ثانوي (ابيفينومينون) للعالم الوجودي المادي؛ أي الموقف الوضعي". (GOFF, 2015, p25)

يجادل ماركس بأن "المعرفة" ليست سوى لحظة ضمن العملية الممارسة لتشكيل الواقع؛ وهي عملية تسمح بإشباع الحاجة وإنتاج حاجة جديدة أو إمكانية. إنها عملية نشطة محدودة بالحاجة الإنسانية من ناحية، وبـ "عناد" الطبيعة المادية من ناحية أخرى. لذلك، يلتزم بالحجة القائلة بأن "العلم [المعرفة] هو علم حقيقي فقط عندما ينطلق من التجربة الحسية، في شكلين من الإدراك الحسي والحاجة المحسوسة..." (GOFF, 2015, p35)

في كتابه "إسهام في نقد الاقتصاد السياسي" (1859)، وضع كارل ماركس (Karl Marx) القاعدة المادية لسوسيولوجيا المعرفة في مقولته الشهيرة: "ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم". لقد أراد ماركس تحطيم الهيمنة المثالية التي كانت ترى الأفكار ككيانات مستقلة، مؤكدًا أن الفكر البشري "مثقل بالمادة" منذ بدايته، وتحديدًا "اللغة" التي اعتبرها ماركس "الوعي العملي". وقد عقب غوف على هذه المقولة بالقول: "هذا التزام بأن الفكر الإنساني مرتبط ولا يمكن أن يكون مستقلاً عن البعد الاجتماعي". (GOFF, 2015, p32)

لقد كان "يؤمن بأن الوجود المادي للأشياء يسبق وجود أفكارنا عنها أو تصوراتنا له". (السيد، 2011، ص 96) حيث "رفض ماركس الاسمية الفردية التي تصور الاجتماعي على أنه مجرد مجموع الأفعال الفردية، وكظاهرة سلبية فقط بالنسبة للفرد، وقابلة للتغيير ببساطة من خلال وسيلة تغيير في الوعي. من ناحية أخرى، رفض أيضًا اختزال الأفراد إلى حقائق اجتماعية سابقة، أو إلى واقع مادي قائم بذاته". (GOFF, 2015, p25)

"خلص العديد من النقاد وكذلك أنصار علم اجتماع المعرفة إلى أن عمل ماركس له، كنتيجة لذلك، أهمية تاريخية وتأسيسية (ما قبل نموذجية) فحسب. تؤكد التحليلات الحديثة نسبيًا لكتابات ماركس، التي تستخدم

بشكل مكثف مواد غير منشورة سابقًا، أن تفسير منظوره على أنه حتمي بشكل ثابت فيما يتعلق بالوعي والمعرفة الإنسانية هو خطأ جوهري". (GOFF, 2015, pp22-23)

المعرفة ليست محايدة؛ بل هي انعكاس للمصالح الطبقية. و"الأيديولوجيا" هي الوعي المقلوب الذي يجعل الطبقة الحاكمة تقدم مصالحها الخاصة كمصالح عامة، مما ينتج "الوعي الزائف" (false consciousness) لدى الطبقات المستغلة. "إنتاج الأفكار والتصورات والوعي يرتبط أولاً بالنشاط المادي والتواصل المادي للبشر... الوعي لا يمكن أن يكون سوى الوجود الواعي". هكذا، تحدد الظروف المادية (الطبقة، الإنتاج) محتوى المعرفة وشكلها. "فالحاجات هي التي تحدد الأفكار وليست الأفكار هي التي تحدد الحاجات، لا وجود إذن لحقائق مطلقة وفقًا لماركس. فالحقائق تتألف من علاقة أفكار الناس بالأشياء التي يفكرون فيها، وصدق الحقيقة يتوقف على مصالح الجماعة التي ينتمي إليه من يحكم عليها". (السيد، 2011، ص 97) هذا التحليل المادي أثر في مانهايم وميرتون، ويعتبر أساس النزعة الاجتماعية-المادية في سوسيولوجيا المعرفة.

تتلخص بنية المجتمع عند ماركس في مستويين:

- **البناء التحتي (Base):** ويشمل قوى الإنتاج (الآلات، التكنولوجيا، المهارات) وعلاقات الإنتاج (علاقات الملكية والطبقات).
- **البناء الفوقي (Superstructure):** ويشمل الأجهزة السياسية والقانونية، وأشكال الوعي الاجتماعي (الدين، الفلسفة، الأخلاق، الفن). الأفكار، والقوانين، والفلسفات (البناء الفوقي) هي انعكاس للعلاقات الاقتصادية والطبقية (البناء التحتي).

إن البناء التحتي هو الذي "يشرط" أو "يحدد" في نهاية المطاف شكل البناء الفوقي. فالمعرفة في المجتمع الإقطاعي (القائمة على الشرف والولاء والأرض) تختلف جذريًا عن المعرفة في المجتمع الرأسمالي (القائمة على الربح، والتنافس، والقيمة التبادلية).

ركز كارل ماركس على الظروف المادية التي تشكل إنتاج المعرفة. وجادل بأن الأيديولوجيا تعكس مصالح الطبقة الحاكمة، مؤكدًا أن المعرفة تتأثر بالبنى الاقتصادية وديناميات القوة. يشدد هذا المنظور على دور الظروف المادية في تشكيل الأفكار، مشيرًا إلى أن المعرفة ليست محايدة، بل تخدم وظائف اجتماعية محددة.

يجادل كل من ماركس وانجلز أن "أفكار الطبقة الحاكمة هي في كل عصر الأفكار الحاكمة، أي أن الطبقة التي هي القوة المادية الحاكمة في المجتمع، هي في الوقت نفسه قوتها الفكرية الحاكمة. فالطبقة التي تملك وسائل الإنتاج المادي تحت تصرفها، تسيطر في الوقت نفسه على وسائل الإنتاج الفكري، بحيث تخضع لها، بشكل عام، أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى وسائل الإنتاج الفكري. الأفراد الذين يشكلون الطبقة الحاكمة يملكون ضمن أمور أخرى الوعي، وبالتالي يفكرون. لذلك، بقدر ما يحكمون كطبقة فإنهم يحكمون ضمن أمور أخرى كمفكرين، كمنتجي أفكار، وينظمون إنتاج وتوزيع أفكار عصرهم: وبالتالي تكون أفكارهم هي الأفكار الحاكمة للعصر. (Marx & Engels, 1974, pp 64-65)

الأيديولوجيا كوعي زائف: الأفكار السائدة في أي عصر هي أفكار الطبقة الحاكمة، التي تستخدم المعرفة لتبرير هيمنتها وتصوير مصالحها الخاصة كأنها مصالح عامة وقيينية. حيث يؤكد ماركس أن "الأفكار السائدة في أي عصر هي أفكار الطبقة المهيمنة". (السيد، 2011، ص 102) فالطبقة التي تسيطر على وسائل الإنتاج المادي (المصانع، الأراضي) تسيطر أيضاً على وسائل الإنتاج الذهني (المدارس، الكنيسة، الإعلام). وبالتالي، فإن المعرفة المنتشرة في المجتمع ليست معرفة محايدة، بل هي معرفة تخدم تأييد سيطرة الطبقة الحاكمة من خلال جعل مصالحها الخاصة تبدو وكأنها "مصالح عامة" أو "حقائق خالدة".

يرى ماركس أن المعرفة تاريخية بطبيعتها، أي أنها تتغير بتغير "نمط الإنتاج". فالحقيقة ليست ثابتة، بل هي مرتبطة بصيرورة الصراع الطبقي. ومن هنا، فإن سوسيولوجيا المعرفة الماركسية تسعى دائماً للكشف عن "المصلحة" الكامنة خلف كل نظرية علمية أو فكرية، مؤكدة أن "النقد الفكري" لا يكفي لتغيير العالم، بل يجب "تغيير الواقع المادي" الذي أنتج تلك الأفكار.

باختصار، يرى ماركس أن المعرفة (خاصة في شكلها الأيديولوجي) ليست محايدة، بل هي أداة في الصراع الطبقي، تعكس مصالح الطبقة السائدة وتساهم في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي القائم. ماركس لا يتعامل مع المعرفة كأفكار معزولة، بل كنتاج مادي واجتماعي يتأثر بالبنى الاقتصادية.